الحب الإلهى من أسرار اللّه فى الوجود

إن الكون كله ساحة للحب الإلهى ، حيث مشاهد عظمة الصنع الإلهى البديع فى الآيات الكونية ، وما تبديه من جمـــال يـــدل على عظمة قدرة الله سبحانه ، وما هى إلا مرئيـــات بجمالهـــا

تَجَلَّى حَبِيبِى فى مَرَائِى جَمَالِهِ فَفِى كُلِّ مَرْءٍ للحَبِيبِ طَلَائِـــعُ
فَلَمَّا تَجَلَّى حُسْـــنُهُ مُتَنوَعـــاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهُنَّ مَطَـــالِعُ

يتعلق قلب العاشق بإثبات المحبة للخالق الأعظم . كمـــا قـــال سيدى عمر بن الفارض سلطان العاشقين ﷺ :

وقال أيضاً :

تَجَلَّيتَ فى الأشياءِ حِينَ خَلَقْتَهَا فَهَا هِىَ مِيطَتْ عَنْكَ فِيهَا البَرَاقِعُ

وأمام ساحة الحب الإلهى فاضت وجدانات كبار العشاق بأنغام وترانيم وألحان ، تطهروا بها وحلقـــوا مـــن خلالهـــا دنـــواً واِستشراقاً من الأفق الأعلى والأسمى ، حيث ينابيع الروحانية والفيض الغامض ، وحيث تمتلئ النفوس بأقباس من النورانية ، وتفيض العيون بدموع الندم والخشـــية والتوبـــة ، وتَعْمُـــرُ القلوب بوشائج المحبة الدائمة ، ومقامات العشـــق وأحـــوال عظيمة . وينسكب هذا كله فى الحقيقة شِعراً يفيض بالصـــدق ويَعْمُرُ باليقين والمحبة والإيمان . وفى هذا المعنى قال سيدى

محيى الدين بن عربى رضى الله عنه صاحب الإشارات فى علم التصوف :

لَقَدْ صَارَ قَلْبِىَ قَابِلاً كُلُ صُورَةٍ فَمَرْعَى لِغُزْلانٍ ودَيــرٌ لِرُهْبَــانِ
وبَيْتٌ لأوثَانٍ وكَعْبَــةُ طَــائِفٍ وأَلْوَاحُ تَورَاةٍ ومُصْــحَفُ قُــرْآنِ
أَدِينُ بِدِينِ الحُبِّ أَنَّى تَوجَهــتْ رَكَائِبَهُ فالحُــبُ دِيْنِــى وإِيمَــانِ

كما أن آيات الإبداع التى تتجلى فى المخلوقات ، هــى ســبيل لتحقيق النشوة الروحية ، التى يَعْرُجُ بهــا كــل اِمــرئٍ نقــى السريرة إلى الله . فالجمال الإلهى يتجلى فى الطبيعة من خلال الموجودات ، والكواكب والنجوم كما يتجلــى فــى النــاس . والكون كله يشترك فى عبادة الله ذى الجمال المُطلق ، المنزه عن التشبيه ، ويغيب بهذا الجمال فى نشوةٍ مقدســة . وهــذا الحُب الإلهى يَعْمُرُ الكون ، ولولاه ما اِنتظم الكون . فإذا حاولنا أن نتأمل حقيقة هذا الحب الإلهى ومعناه ذلك الذى هام فيــه السادة الصوفية وفَنَوْا ، وتفانو معبرين عن خــوالجهم وعــن شطحاتهم ، فى نثرهم وشعرهم وأدعيتهم

واِبتهالاتهم وشروحهم وتعليقاتهم ومنظوماتهم ، وجــدناه قــد تمثل فى صورته من خلال التعبير القرآنى المُحكم ، ومــأثور كَلِمِ سيدنا رسول الله ﷺ . جاء هذا المعنى فى القرآن الكــريم يحبهم ويحبونه فى قوله تعــالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن

يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ سورة المائدة . ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة آل عمران . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ سورة البقرة

ويروى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال فى دعائه: " اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك والعمل الذى يُبلغنى إلى حبك . اللهم إجعل حبك أحب إلىَّ من نفسى وأهلى ومن الماء البارد " هذا دعاء سيدنا رسول الله ﷺ ، ومن مأثور قول الرسول

الكريم ﷺ (من أحب الله فليُحبنى ، ومن أحبنى فليُحب أصحابى ، ومن أصحابى فليُحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليُحب المساجد فإنها أبنية أذن الله تعالى برفعها وتطهيرها ، وبارك فيها فهى ميمونة ميمون أهلها ، فهم فى صلاتهم والله فى قضاء حوائجهم ، وهم فى مساجدهم والله تعالى فى نَجْحِ مقاصدهم) . وفى القرن الثانى الهجرى تتأكد فكرة الحب ــ أى الحب الإلهى ــ حب الله سبحانه من خلال شخصية إلتفت حولها القلوب والعقول ، هى شخصية السيدة العابدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، التى ظهرت فى البصرة فى بلاد العراق داعيةً بدعوة جديدة ، هى دعوة التقرب إلى الله عن طريق حبه ، وهى تُنادى بهذا الحب ؛ لأنها ترى أن الله أهلٌ لأن يُحَبُ أولاً لأنه مُصْدِرُ النعم التى لا تنقطع ، هو المَصْدَرُ والمُصْدِرُ لها فلا سبيل لأن ينقضى حُب المُنْعِمِ بها على العباد ، وهو أهلٌ لأن يُحب ثانياً لجماله وجلاله . فتقول السيدة رابعة رضى الله عنها :

أُحِبُكَ حُبَين حُبُ الهَوَى ... وحُبَاً لأنَكَ أَهْلٌ لِذَاكَ
فَأَمَّا الذى هُو حُبُ الهُوَى ... فَشُغْلِى بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وأَمَّا الذى أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ لِى الحُجْبَ حَتَى أَرَاكَ
فَلا الحَمْدُ فى ذَا ولا ذَاكَ لِى ... ولَكِنْ لَكَ الحَمْدُ فِى ذَا وذَاكَ

وفى موضع آخر من كلامها تقول السيدة رابعة العدوية:

ولَقَدْ جَعَلْتُكَ فِى الفُـؤادِ مُحَـدِّثِ ... ولقَد أَبَحْتُ جِسْمِىَ لِمَنْ أَرَادَ جُلُوسِ
فالجِسمِ مِنِّى للجَلِـيسِ مُـؤانِسِ ... وَحَبِيـبُ قَلْبِـى بـالفُؤَادِ أَنِـيسِ

وتقول أيضاً السيدة رابعة :

فليتك تحلو والحياة مَرِيـرَةٌ ... وليتكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَـابُ
ولَيْتَ الْذى بَيْنِى وَبَيْنَك عَامِرٌ ... وَمَا بَيْنِى وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ
فَإِنْ صَحَّ الوُدُّ مِنْكَ فالكُلُ هَيِّنٌ ... وكُلُ الذى فَوْقَ الْتُرَابِ تـرابُ

وتقول أيضاً رضى الله عنها فى حق الله فى أن يُعْبَد :

كُلُهُمْ عَابِدُوكَ مِنْ خَوفِ نَـارٍ ... ويَرَونَ النَجَـاةَ حَظـاً جَزِيـلَ
أو بأنْ يَسْكُنُوا الجِنَانِ ويَحْظَوا ... بقصُورٍ ويَشْـرَبُوا السَلْسَـبِيلَ
لَيسَ لِى فِى الجِنَانِ والنَارِ حَظٌ ... أَنَـا لا أَبْتَغِـى بحُبِـى بَـدِيلَ

الله . الله (يعنى أنا أحب الذات للذات ، لا خوفاً من النار ولا طمعاً فى جنة ، ولا أرضى بديلاً أبداً بالمحبوب) . هـذا هـو الحب الإلهى وجماله . وقد نهج علـى وتـر السـيدة رابعـة العدوية واستلهاماً بعضهم فقالوا :

لَمَّا عَلِمتُ بأَنَّ قَلْبِى فَـارِغٌ ... مِمَّنْ سِوَاكَ مَلأْتُـهُ بهَـوَاكَ
ومَلأْتُ كُلِّى حَتـى لَـمْ أَدَعُ ... مِنِى مَكَانَـاً خَالِيَـاً لسِـوَاكَ
فَالقَلبُ فِيهِ هِيَامُهُ وغَرَامُهُ ... والنُطْقُ لا يَنْفَكُ عَنْ ذِكْـرَاكَ
والطَرْفُ حيث أَجِيلُهُ مُتَلَفِتاً ... فِى كُلِ شَئٍ يَجْتَلِـى مَعْنَـاكَ
والسَمْعُ لا يَصْغَى إلى مُتَكَلِمٍ ... إلا إذا مَـا حَـدَثُوا بحُـلاكَ

الله . الله . ومن كلمات سيدى عمر بن الفارض سلطان العاشقين من كلماته المشهورة رضي الله عنه :

لك قُرْبٌ منى ببُعْدِكَ عنى ... وَحُنُوٍّ وجدتُهُ فى جفاكَ
عَلَّمَ الشوقُ مُقْلَتِى سَهَرَ الليلِ ... فَصَارَتْ مِنْ غيرِ لَومٍ تَرَاكَ
حَبَذَا لَيلَةً بِها صِدتُ إسْرَاكَ ... وكَانَ السُهَادُ لِى أَشْرَاكَ
بَاتَ بَدرُ التَمَامِ طَيفُ مُحيَّاكَ ... لطَرفِى بيقْظَتِى إذْ حَكَاكَ
فَتَرائيتُ فى سِواك لعينٍ ... بِكَ قَرَّتْ ومَا رَأيتُ سِوَاكَ

وهذه أبيات تدور حول فكرة إستحضار صورة المحبوب بالمعانى الطريفة ، وهذا ما بنى عليه أهل المحبة وهو مجال كان لابن الفارض فضل السبق فيه من خلال قدرته الفذة على إصطياد عشرة الصور التى يتمثل فيها جمال صورة المحبوب ، وتتجلى روعتها وتفردها وتمايزها أليس هو القائل أيضاً ابن الفارض رضي الله عنه

تَرَاهُ إنْ غَابَ عَنِّى كُلَ جَارحَةٍ ... فِى كُلِ مَعْنَى لَطِيفٍ رَائقٍ بَهِجِ
فى نَغمَةِ العُودِ والنَّاى الرَّخيمِ إذَا ... تَأَلَّفَ بين أَلْحَانٍ مِنَ الهَزَجِ
وفِى مَسَارِحْ غِزْرانِ الخَمَائِلِ فِيهِ ... بَرْدِ الأصَائِلِ والإِصْبَاحِ فى البَلَجِ
وفِى مَسَاقِطِ أَنْدَاءِ الغَمَامِ عَلَى ... بِسَاطِ نُورٍ من الأَزْهَارِ مُنْتَسِجِ
وفِى مَسَاحِبِ أَذْيَالِ النَّسِيمِ إذَا ... أهدَى إلىَّ سُحَيْرَاً أطيبَ الأَرَجِ
وفِى التثَامِى ثَغْرُ الكَأسِ مُرْتَشِفَاً ... رِيقَ المُدَامَةِ فى مُستَنْزَهٍ فَرَجِ
لَمْ أدْرِى مَاغُرْبَةُ الأَوطَانِ وهُو مَعِى ... وخَاطِرِى أَيْنَ كُنَّا غَيرَ مُنْزعِجِ

ويبدو أن هذا اللون من الحب ، لم يكن من السهل ولوج عالمه والإرتفاع إلى مستوى معاينته ، إلا بعد إبتلاء طويل وتجارب قاسية ، يتعرض فيها الصوفى ولى الله فى البداية إلى معاناة الحب الإنسانى حتى تحتدم به عاطفته ، فيكون التحول إلى حب أسمى هو حب الله (أى أنه يُبتلى فى محبة أهله ومحبة الناس) وبعد ذلك حين يرتقى إلى مقام الولاية لا يرى إلا محبوبه ، ولا يبالى فى الكون أحداً إلا الله لا يُرائى ولا يُجامل على حساب دين الله ؛ ولذلك يكون أعداء الله كلهم معادين له ؛ ولذلك الحق تبارك وتعالى ساعة أن يرتقى الولى إلى مقام الولاية الحق يقول :" من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب " . قال بعض المريدين لشيخه وأستاذه قد طُولِعتُ بشئ من المحبة ، فقال له الشيخ يا بُنَىّ : هل اِبتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه (يعنى هل أن الله ابتلاك بمحبوب سواه كنت تحبه وبعدين جيت حبيت ربنا وآثرته على هذا) فقال : لا . فقال الشيخ : فلا تطمع فى المحبة ، فإنه لا يعطيها عبداً حتى يبلوه . وشبيه بهذا ما قيل لبعض السادة الصوفية رضى الله عنهم ، وكان قد بذل المجهود من ماله ونفسه حتى لم يبقى منها بقية : ما كان حالك من هذه المحبة ؟(بيسأل بعض السادة الصوفية ما كان حالك من هذه المحبة

؟ فقال كلمة سمعتها من خلق لخلق عَمِلَتْ بى هذا البلاء . (سمعتها من مخلوق بيقول لمخلوق إنى أحبك) قيل : وما هى ؟ قال : سمعت محبوب قد خلى بمحبوب . وهو يقول أنا والله أحبك أُمَلِّكُكَ مَا أملك ثم أُنْفِقُ عليك روحى حتى تَهْلِكْ فقلت : هذا خَلقٌ لخلقٍ وعَبدٌ لعبدٍ فكيف بخَلقٍ لخالق ؟ وعَبدٌ لمعبودٍ ؟ فكان لذلك سببه . كان ذلك أنى تفانيت فى محبة الخالق ، وهذا هو الحب الإلهى . وهذا سيدنا ذو النون المصرى الولى الصوفى فى القرن الثالث الهجرى يقول حين سُئل عن الأُنْسِ . قال رضي الله عنه : أن تأنس بكل وجه صبيح . وكل صوت فصيح ، والله تبارك وتعالى فيما بينك وبين ذلك . (شوف مين الأحق بأن يكون أنيسك) . وفى القرن الرابع الهجرى نُطَالِعُ عند أهل الصفا من السادة الصوفية أولياء الله رضي الله عنه إدراكاً أعمق وأشمل لفكرة الحب الإلهى ، باعتباره الحب الحق ، والعشق الخالد الذى تسمو إليه النفس الناطقة عند بلوغها أقصى ما تسموا إليه من الكمال ، فالله هو المعشوق الأول المنزهُ عن الشبيه . ولا يستلزم حب الله والهيام إليه تجسيماً فى رأيهم ؛ لأن الله يَجِل عن الشبيه والصورة لكن رؤية أولياء الله تعالى له هى نورٍ بنورٍ لنورٍ فى نورٍ . كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ

نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ سورة النور .

وهكذا يمضى أهل المحبة وصفاء السريرة فى هذا الطريق طريق اِتخاذ الحب طريقاً إلى الله ، والهيام به لجماله وجلاله ، وإدراك أن هذا الجمال كان الباعث على خلق الكون ، والفلك إنما يدور شوقاً إليه ومحبة للبقاء والدوام المديد على أتم الحالات ، وأكمل الغايات وأفضل النهايات . وهكذا تكتمل صورة هذا الحب الإلهى .

كان هذا جانب من محاضرة عن الحب الإلهى ألقاها فضيلة مولانا العارف بالله سيدى الشيخ / محمد السيد أبو العينين الرفاعى رضي الله عنه ضمن سلسلة محاضرات كتاب علم ومعرفة

خادم الطريقة المحمدية وآل البيت الكرام / وليد فاروق